Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امرأة مجردة من عاطفة الأمومة، مهنتها الأثيرة ، الشتْم والسباب لابنها، دون أن تخالج نفسها أيّة نفحة من معاني الغفران لسحيمان، أو الحب الحقيقي لابنها (عنيدان). وفي هذا شيء من الغرابة حقاً...!

كما بدت (هدية) خادمة مطيعة في كل البيوت التي عملت فيها، وظهرت امرأة خوّافة جبانة لاتريد لولدها أن يطالب بحق دم أبيه من الشيخ (هدّاد)، فكانت الصورة المناقضة لصور بعض النسوة في روايات أخرى، مثل روايتي عبد الرحمن منيف "شرق المتوسط" و "الآن... هنا أوشرق المتوسط مرة أخرى" فأم (رجب اسماعيل) في الرواية الأولى، تقول له، رغم سجنه وتعذيبه: "احذر يا رجب، الحبس ينتهي، أما الذل فلا ينتهي، لاتقل شيئاً عن أصدقائك... احذر.. أتسْمعني"- (شرق المتوسط ١٤٤). فنحن هنا أمام أمٌ تطالب ابنها بأن لايذل رغم التعذيب والجلد والتنكيل، ونحن هناك أمام أمٌ تطالب ابنها بالكف عن المطالبة بحقوقه خوفاً من العواقب الوخيمة. ولا تلقي بالاً للذل الذي تعانيه مع ابنها عند الشيخ (هدّاد)...! وكذلك كانت أم (طالع العريفي) في رواية (الآن... هنا) لعبد الرحمن منيف. ثم إن شخصية (هدية) تقف أيضاً على الطرف الآخر من مصطلح (المومس الفاضلة) علماً بأنها ليست (مومساً). ولكنها ممهورة بلعنة الجنس التي تلبّستها. وإذا قارنا بينها وبين (شكيبة) في رواية (الياطر) لحنا مينه، وجدنا فرقاً كبيراً جداً، هو الفرق بين النموذج الحيّ الثائر الساعي لتغيير الأشياء وتحويلها، وبين النموذج الخامل المتقاعس الذي يخشى التغيير ويخاف التحوّل.

أما الابن (عنيدان) فقد كان فتىً كسولاً خاملاً، ضعيف البنية، قليل الحيلة. ورغم محدودية قابليته للتعلم، استطاع أن يستنتج قياساً على (قصة الثور غندور) أن له حقاً عند الشيخ (هدّاد). وقد طالب به، ولكن دون جدوى... وقد آل به الانتقال إلى المدينة أن يشعر بالحب، ويرتبط بعلاقة عاطفية مع (هيفاء). وليس من الانصاف -في ضوء ما قدّمه الكاتب- المقارنة بين فِعْلة (سحيمان) بـ (هدية)، وماجرى بين (عنيدان) و (هيفاء). فشَرْطا الفعلين مختلفان، فهناك في الريف اغتصاب وكره. وهنا في المدينة رضا وحبٌ، وشتّان بين الأمرين. ومن البدهي أن نشير إلى أن إعصار الحب الذي يهدم كل الأسوار كما يقول (نزار قباني)، ونبض القلب، وسيول العاطفة لاتعبأ بالفرق بين بشرة (عنيدان) السوداء، وبشرة (هيفاء) البيضاء.... وقد هزنت المغامرة العشقية بين هذين الحبيبين بذلك الفرق وازدرته وهدمته، ولكن لم يكن ذلك جذرياً وعميقاً ودالاً، في ضوء ما آلت إليه الأحداث من بعد...